التصوف الإسلامي
حقيقته ومناهجه

بقلم الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

نستطيع بعد الذى أشرنا اليه فى الكلمات السالفة أن نقدم التصوف الاسلامي الى القراء الكرام نقيا خالصا كما نشأ من القرآن والاحاديث القدسية والنبوية وبسطناه فى نصوعه الاولى قبل أن تلتقى به الدخائل الأجنبية ، وأبنا أن ثمرته المقصودة هى الاتصال التام بين الروح البشرية وخالقها ، لا سيما بعد أن تبين للمؤمنين أن هذا الاتصال هو المنقذ الوحيد من أخطبوط الفتن والاضطرابات ، وأن الوصول الى الحقيقة التى تتوق اليها نفوسنا ، لا يتيسر لنا عن طريق الظلال الحسية ، ولا عن طريق المفاهيم الذهنية ، بل بالعكس هى حجب تحول بيننا وبين تلك الحقيقة المرموقة من كل قلب . ولكى نظفر بها ناصعة ، ينبغى أن نخترق هذه الحجب الحسية . والوسيلة المثلى لهذه الغاية هى تخلية النفس عن علائق اللذائذ ، وتنقية القلب من شوائب الرغبات . وعندما يصل المريد الى هذه هذه المرحلة ، يتطلع الى أسمى منها وهى مرتبة التخلص من ذاته والقائه بهويته فى بحر الغوث الالهى . وعلى أثر ذلك قد يفيض الله عليه حياة مشرقة مليئة بالانوار والاسرار لا تبدو محجبة الا أمام أولئك الذين رضوا لأنفسهم الانحصار فى عالم الظواهر أو فى محيط الظلال والصور الذى تحدث عنه أفلاطون فى أسطورة الكهف الشهيرة ، واذن فالحديث عن التصوف هو حديث عن الروح نفسها . ولكنه ليس حديث هواية أو رغبة فى الاحاطة بالمجهول ، وليس للبحث عن سبب من أسباب الفرار الذى ينقذ المتنسكين من أعباء الحياة العملية ، كما يزعم الذين حسبوا أن التصوف هو لون من ألوان الضعف والفرار من المسئولية .. وانما هو أمثل الوسائل لعثور الفرد على روحه ، ولظفر المجتمع بكيانه الحقيقى وتماسكه المتين ، لانه كفيل بأن يكشف الحجب عن كل ما غمض من هذه الجوانب كشفا تاما ، ومعنى هذا أن التصوف هو تسام يوصل الى السمو ، وفى هذا يقول أحد أعلام الصوفية فى القرن الثالث ليس التصوف نصوصا محفوظة ، ولا علوما نظرية ، وانما هو أخلاق فحسب . واذن فهو قاعدة الحياة .

وفى الحق ان التصوف هو القاعدة التى ـ عن طريق التأمل فى القرآن،

ومحاكاة حياة النبى - تسمح لصاحبها بأن يصل الى أسمى حد ممكن من الحياة الروحية التى أبرز طوابعها الواضحة هو حب الفضيلة . ولكنه ليس حبا قوامه انعزال المرء فى نفسه ، أو دورانه حول ذاته ، بل هو حب سداه الاحتكاك الكثير المتتالى ببيئته ، ولحمته الايثار ، بل الفدائية لمجتمعه . لأن المميز الذاتى للصوفى الحقيقى هو الامتزاج التام بالحياة اليومية للجماعة ، والعكوف الدائب على تأدية واجب المساعدة والنصيحة .

ولما كان هذا الجانب الاجتماعى من التصوف الاسلامى ، لا يزال مجهولا لدى السواد الاعظم من المسلمين ، بل لدى أكثر الصفوة من خاصتهم ، فاننا نرى من الحق علينا - وضعا للامور فى نصابها - أن نقرر أن للتصوف الاسلامى أربع مراحل رئيسية ، أولاها انعطاف الروح البشرية نحو خالقها ، واتجاهها اليه بكليتها . وثانيتها بذل الجهد العظيم فى التطهير الباطنى ، واعداد النفس لتلقى الفيض الالهى . وثالثتها الانجذاب الذى يحقق الاتصال المرموق ، وهنا ينبغى أن نعترف بأن بعض المريدين السالكين مناهج التصوف ، كثيرا ما يقفون عند هذه المرحلة الثالثة ، ويكتفون بهذا القدر من الفيض الربانى . ولعل هذا هو الذى خدع الكافة وأكثر الخاصة فى الحكم على صوفية المسلمين، وأبرزهم فى هذه الصورة المشوهة المشبعة بالأنانية ، والتى لا تشتمل على أية فائدة للمجتمع . ولكن المكتفين بهذه المرتبة ، يعتبرون قد فشلوا فى تصوفهم فشلا ذريعا ، اذ أن المرحلة الرابعة هى أهم المراحل وأقيمها ، بل هى تاج الحياة الصوفية الذى يضمن نجاحها ، ويحقق ثمرتها ، ومؤداها أن الصوفى - بعد أن ينتهى من أزمات الانجذاب ، ويظفر بالرضى والطمأنينة - يعود الى الحياة الاجتماعية ويوجه كل نشاطه ، وجميع مظاهر سلوكه الى فوائد الآخرين ومنافعهم . وتلك بالاجمال هى حياة الاتقياء أو الحكماء من صوفية المسلمين .

وبما اننا قد استعملنا هنا لفظة الحكماء ، فقد وجب علينا أن نقف هنيهة عند هذه النقطة لنوفيها ما تستحقه من العناية ، وبيان ذلك انه لما كانت هذه الكلمة تطلق فى الاصطلاحات العربية على عظماء الفلاسفة ، كما تطلق على أعلام الصوفية ، فانه ينبغى لنا أن نلمع الى كل من الحكمتين الماعة خاطفة نبين بها الفرق بين منهجيها . وبهذا نلقى الضوء بطريقة آلية على طبيعتيهما دون تكلف ولا اصطناع ، ومجمل هذا الفرق ان الحكمة الفلسفية تكتسب بالمجهود الذهنى ، وتتقدم فى خطواتها على ضوء العقل .. وباسمه وحده تقدم الفلسفة مذاهبها المؤلفة من نظريات مرتبة منظمة يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيق العرى ، متين الاواصر ، وباسمه تحاول أن تتعقل وتبرهن بوساطة المنطق ، معتمدة على وقائع ثابتة وأحداث مقررة . وهى تحاول كذلك أن تصل الى الحقائق أحيانا عن طريق

الظواهر ، وتؤلف معارف يمكن نقلها بوساطة التخـــاطب الى الافـــراد والجماعات ..

أما الحكمة الصوفية ، فلا يتناقل منها الا طرقها ووسائلها ومناهجهـا وتعاليمها وأوامرها ونواهيها ، وأما جوهرها ؟ فلا يمكن تناقله ولا تعلمه ولا شرحه كما هى الحال فى الفلسفة ، بل هو تجربة شخصية أو علم خفى ملىء بالاسرار يقدم من الحضرة اللدنية الى من يسعد بالاصطفاء . وهو — فيما يرى الكثيرون — يمكن أن ينتهل منه الجهلاء ، كما يظفر به أفذاذ العلماء ، ويمكن اللحـــوق به فى وسط الجماعات القلقة المتألمة كما يمكن ذلك فى هدوء العزلة وسكينة التوحيد ، لأنه يجتاز الحالات البشرية ، وبالتالى هو لا يخضع لشرائطها . وانما كل الذين يضنيهم الظمأ الى المطلق .. يستطيعون الاتجاه اليه ليلتقوا به . ووسيلة هذا الاتجاه هى مزاولة ذلك السفر الباطنى الذى تقوم به الروح نحو خالقها ، وهى لا تستطيع البدء فى هذا السفر الا اذا كانت طاهرة مخلصة خاضعة للاوامر الالهية .. متحكمة فى قواها ، سيدة لأهوائها ..

بيد أن هذا ليس معناه أن التصوف يجتاز حدود العقل أو يتجهم له ، أو أنه لا يعبأ بالتأملات الفكرية ، كلا فتلك فكرة خاطئة ..

حقا ان التاريخ يحدثنا انه كان بين مشاهير الصوفية عدد من الجهلاء الذين لم ينالوا من الثقافة حظا كبيرا ولا صـــغيرا ، بل هم من الاميين والدهماء ، ولكن ينبغى تسجيل أن أعلام التصوف الاســـلامى كانوا من جهابذة العلماء المتضلعين الذين يشار اليهم بالبنان ، وانهم وضعوا مواهبهم واستعداداتهم العقلية تحت تصرف استكمالهم الباطنى وتكميل الآخرين . ولما كان أولئك الاعلام قد منحتهم العناية الربانية نعمة موهبة التحليـــل السيكولوجى ، فقد أرادوا — حسب تجاربهم الخاصة — أن يرســـموا للآخرين فى أتم وضوح ممكن ، الطرق التى يجب على المـــريد اجتيازها لكى يصل الى عتبة الاتصال الذى ظل غير ممكن التناقل ، لانه سر الهى انكشفت وسائله ، وخفيت نتائجه « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشـــاء والله ذو الفضل العظيم** » . من آية عشرين من سورة الحديد « **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب** » آية ٢٦٨ من سورة البقرة .

ومن أبرز الامثلة بين أعلام الصوفية الاولين الذين عرفوا منزلة العقل ، ولم يغضوا من قيمته ، حسن البصرى ، وهو من أقوى الشخصيات الاسلامية على الاطلاق الى حد أن قيل عنه : « ان مرتبته فى التصوف لا تقل عن مرتبة عمر فى سياسة الدولة » ومما يلفت النظر فى ثقافة هذا الاستاذ .. انه لم يكن فى علم الكلام أدنى منه فى التصوف . ومما يمتاز به أنه

أسس مذهبه فى التنسك على وجوب مداومة الفكر أو التأمل طول حياة المؤمن . واذا أنعمنا النظر فى منهجه ألفيناه يشبه منهج سقراط الذى يعتمد على العقل فى اجتذاب سامعيه فى شيء غير قليل من الوداعة ، الى ملاحظة الضمير ، والى تطبيق مذهبه فى الزهد التنسكى ، ولكنه لم يشأ أن يضع أتباعه على رأس طريق التصوف الا بعد أن التجأ الى نور العقل الذى لم يخلقه الله عبثا ، ولم يخاطب فى تكليفه الا اياه ..

والآن نحسب أن ما قدمناه عن الصوفى الحقيقى يسمح لنا بأن نتمثله رجلا ذا ايمان ثابت ومزاج حازم وارادة قوية وأنه لا يستطيع أن يكتفى بملاحظة الأحداث الظاهرية والوقوف أمام وجودها أو رغبتها مكتوف اليدين ، خائر القوى ، مقتصرا على جمع الآراء ومناقشتها دون المساهمة فيها بنصيب علمى موفور . وانما نستطيع أن نجزم بأنه قبل كل شيء شغوف بالجوانب الثابتة الكامنه فى الظواهر الحائلة ، وانه دائب التنقيب عن الحقائق المستترة وراء المحسات الزائفة ، وان منهجه هو بحث باطنى شخصى ، وتأمل فى حكمة الاوامر الالهية ليبرزها فى صورتها الحقيقية الناصعة ، وليظهر عبادته فى كمالها الذى خفى على العامة والجماهير فأحاطوه بكثير من الخرافات والاساطير ، وذلك لأن الصوفى يعلم حق العلم - كما قال المحاسبى - أن الكلمات الالهية لا تنقش نقشا مثمرا الا على القلب المتخلى عن عبث الحياة ، والمستعد للسمع والطاعة .

وقصارى القول ان قوة أفكارهم تتولد من تاملاتهم المتوحدة المستأنية العميقة المتحمسة العملية التى يديمونها فى تدبر معانى القرآن ، ولا جرم أن الموفقين منهم ، يظلون عاكفين على هذا التأمل حتى لكأنهم يشعرون برنين القرآن يجلجل فى قلوبهم عى صورة مصغرة مما كان يحدث للنبى صلى الله عليه وسلم .

ومما هو غنى عن البيان أن غاية أعلام الصوفية من بسط نظرياتهم وعرض عظاتهم ، هى الدعوة الى العمل المستمر المؤسس على الفكر الدائم ، والصادر عن قوى النفس الثلاث ، أى : العقل والذاكرة والارادة . ولا شك أن العمل الذى هذا شأنه هو الذى يحقق اتجاه الفرد الى ربه ، والسير نحوه من خلال الليل المظلم المخيم على الحياة المادية .

وبما أننا أشرنا هنا الى نظرياتهم التى يبسطونها ، فانه ينبغى لنا أن نلمح اليها ، فمنها مثلا البحث عن طريق الوصول الالهى حيث يسأل الصوفى كيف يجد الانسان ربه ، ثم يجيب بقوله انه يجده باجتيازه العالم الحسى ، وبتمرين الارادة الشخصية ، ثم يسأل كيف يعرف ربه ؟ ويجيب : انه يعرفه عن طريق ايمانه بأنه هو الموجود الاسمى المفارق ، وبوساطة عقيدته الخالصة فى الجزم بسمو ذاته وبأنه ليس كمثله شيء » .

وأخيرا يسأل كيف يتصل الانسان بخالقه ؟ ثم يجيب : انه يتصل به حين ينظر اليه وحده ولا يعير أية لفتة لهذه الكثرة المخلوقة ، وحين يحصر حبه فى الذات الاقدس وحده معتمدا فى رجائه تحقيق هذا الاتصال ، على الحب المتبادل بين الخالق والمخلوق ، والذى أشارت اليه الآيات القرآنية اذ قالت : « ... **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين** » . « **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله** » آية ١٦٤ من سورة البقرة وكذلك أشار اليه الحديث القدسى بقوله : « ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها .. واذا تقرب عبدى منى شبرا تقربت منه ذراعا ، واذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا » الخ . ولا ريب ان الشبر والذراع ، والباع هى مقاييس مادية أتى بها تقريبا للاذهان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وانما المراد هو الدرجات المعنوية الدالة على القرب والاتصال لا أكثر ولا أقل ..

ومما هو جدير بالعناية هنا هو أن ننوه الى أن الامام الغزالى قد جلى مسألة الحب الالهى فى الجزء الرابع من الاحياء ، ومنذ ذلك العهد يمكن القول بأن التصوف الاسلامى قد تركز فى الاتصال الناشىء من الحب مع كثير من التباين بين الاحوال الشخصية ..

ومهما يكن من الامر ، فان هذا التأمل العميق من جانب صوفية المسلمين فى معانى القرآن ، وفى الحياة الروحية للرسول ، قد انتهى بهم الى الاستيقان بأن الزهادة التامة ، والاخلاص المطلق يلتقيان بقلب المؤمن على معراج النقاء ، وان الحالات السيكولوجية لهذا القلب تصير ثابتة ، وان الوصول الى هذه المرتبة يتحقق عن طريق التقدم المنظم المطرد الذى يؤلف المقامات المتتالية التى تسمح للسالك بأن يقتاد تأملاته فى نجاح حتى ينتهى الى عتبة الاتصال الراد ، ولا ريب أن هذه المقامات تختلف باختلاف أعلام الصوفية وثقافاتهم الخاصة ونزعاتهم الشخصية ، واستعداداتهم الفردية . ولقد كانت تلك المقامات فى مبدأ الحياة الصوفية الاسلامية قليلة العدد ، ولكنها - بوساطة التحليلات السيكولوجية المثابرة - جعلت تنمو وتتضاعف حتى لقد وصلت عند بعض أولئك الاعلام الى مائة كما سجل ذلك عبد الله الانصارى فى كتابه القيم « منازل السائرين الى رب العالمين » .